الفصل الثالث عشر
تحليل شخصية الخيام

كان عمر الخيام شخصية فريدة، وكان بكل المقاييس إنساناً موهوباً، وعبقرياً لا شك فيها، كما سبق أن فصلّنا ونبهّتْ إليه المراجع العلمية والموسوعات العالمية وكُتب التراث.

وذكاؤه قد شهد به الثقات فقالوا فيه إنه علاّمة عصره وأوحد زمنه فى الحكمة، ولم يوجد له مثيل فى الرياضيات والفلك، وكان تلو ابن سينا، ولقّبوه سيد الحكماء، وفيلسوف العالم، والإمام، وحجة الحق، والدستور.

وقال الشهرزورى فى ذاكرته إنه قرأ مرة فى أصفهان كتاباً سبع مرات، فلمّاعاد إلى نيسابور استطاع أن يمليه. وقال القزوينى إنه كان حلاّلاً للمشاكل فاشتكى له أهل الرباط من درق الطير فصنع لهم ما يقيهم منه. والذكاء فى أحد تعاريفه هو القدرة على حل المشاكل. وعلامات النبوغ تظهر على الموهوب والعبقرى منذ طفولته. وحكى نظام المُلك عنه أنه لمّا عرفه صبياً فى مدرسة الإمام موفق النيسابورى كان آية فى الفطنة والذكاء.

وفى قدراته المعرفيه قال الشهرزورى إنه كان موسوعة فى علم القراءات. وقال البيهقى إنه كان عالما بكل جديد فى أجزاء الحكمة، وقدّمه فى الرياضيات والفلك على الإمام الغزالى. وفى نتمة صوان الحكمة أن الخيام كان ضليعاً فى تفسير القرآن، ومحيطاً بكل قول نادر فى التفسير، ويورد فيه كل شاهد شارد.

وقالوا فى صفاته الأخلاقية إنه لم تكن له عادات جامدة، وكان محباً للتغيير. وظهر أن له إرادة فى تصرفاته، وتأثير على حاشية السلطان وتوجيههم. وكان مجادلاً ممتازا، يحب الحوار، وأن يجتمع بالناس، ويباهى بأصحابه.

واختياره للتدريس يكشف عن خصائص فكرية وميول للقيادة وتولى زمام الأمور، وقدرة على الصياغة والتشكيل والابتكار. وامتاز الخيام بالتخيل والتفكير، وله استغراقات فيهما، وبه ميل الى تأسيس أفكاره على المنطق. ونستطيع أن نقول إنه كان اجتماعياً بشروطه، ودوداً، ويصدر فى سلوكه عن مُثل عليا دينية ومعرفية. ولم يكن أنانياً، ولا منفصلاً عن الواقع، ولا منساقاً وراء الانفعالات. ولم يتابع فى أخلاقياته العادات والتقاليد من غير وعى وفهم. ولم يندفع إلى عدوان. ولم تكن سلوكياته مفككة، بل هو المهّذب تهذيباً كاملاً، والناضج فى انفعالاته، والصريح والمتوازن والمتعقل والمتمسك بمبادئه.

وكان عاشقاً للجمال، ومحباً للموسيقى. ولقد عُلِمناَ أن له رسالة فى الموسيقى ضاعت

مخطوطتها أثناء حرب الخليج ضمن ما ضاع من مقتنيات معهد المخطوطات العربية.

ولعل أهم ما ينبغى أن نلفت إليه ونوليه عنايتنا من البحث هو **الناحية المزاجية** فى شخصية الخيام. وقد ذكر البيهقى أنه كان «**سئ الخلق ضيق العطن**»، ويعنى بذلك غالباً أنه كان سوداوى المزاج، ويغلب عليه الكبت الانفعالى والميل إلى التشاؤم، وإلى النظر الى الأمور من جانبها القاتم. غير أن البيهقى قد تناقض وقال فى نفس الوقت إنه كان متوقد الذكاء، شديد الفطنة والانتباه، واعى الذاكرة. ومن شأن التشاؤم والكبت والقمع وما أشبه أن يؤثر على الذاكرة ويتسبب فى النسيان الكثير وتشتت الانتباه. فكيف يستقيم الأمران إذن؟ والغالب أن البيهقى اعتمد فى ملحوظته السابقة على ما يُرَوى عنه من رباعيات متدنية الأخلاق. ولعله بالذات يشير إلى رباعياته الإباحية التى تصفه بالخلاعة، وتحيطه بمجموعة المجّان من قلندرية الحانات. وربما كانت إشارته خصوصاً إلى الرباعية التى يقول فيها إنه لم يحب شيئا قدر حبه لهذه الثلاث خصال: اللوّاطة والزنا والغدر!! ولقد عرفنا أن هذه الرباعيات منحوله ولا يمكن أن يكون الخيام قد وضعها.

واللواطة التى تتضمنتها الرباعيه السابقه، انحراف جنسى واضطراب فى الشخصية يظهر أثرهما فى كل أجزاء السلوك من تفكير وتوجهات ونزعات وميول، فإن استطاع المريض بها أن يخفى أمره عن الناس، فلن يستطيع أن يستر خوافيه وهى أبيْن عن حاله من السلوك الصريح. ومن تحصيل الحاصل نفى هذه التهمة الشنيعة عن الخيام، فبطلانها أظهر من كل نفى. وكذلك الزنا والغدر. وقد دحض الخيام كل اتهامات من هذا القبيل فقال مما أُثِر عنه:

أصوم عن الفحشاء جهرةً وخفية * عَفافاً، وإفطارى بتقديس فاطرى

أى أنه لا يأتى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، لا عن خوف من عقاب أو طمعاً فى ثواب، ولكنه شأن الأولياء أولى الهمّة لا يأتيهاً عفافاً فى حدود ما حرّم الله. ويقول:

وكم عُصبة ضلّت عن الحق فاهتدت * بطرق الهُدى من فيضَى المتقاطر

أى أنه كان سبباً فى هداية الناس وإرشادهم، وصرفهم عن الغواية والضلال.

ويقول فى عبارة جميلة جازماً بما عليه من كريم الأخلاق وفيض الهدى:

فإن صراطى المستقيم بصائـر * نُصِبْنَ على وادى العَمَى كالمناظر

وكأنما الخيام يتنبأ بما سيوجه إليه من افتراءات، وما سيتهمه به المرجّفون، فقال:

سبقتُ العالمين إلى المعالى * بثاقب فكرة وعلو همّة
فلاح بحكمتى نور الهدى فى * ليالٍ للضلال مدلهمة
يريد الجاحدون ليطفئوه * وأبى الله إلاّ أن يُتمّه

*****

ولعل **الإبداع** هو أبرز سمات الخيام. والإبداع هو التفكير التغييرى. ولا يسمى المفكر أو الفليسوف أو الشاعر مبدعاً إلاّ إذا اتسم تفكيره بالأصالة، وكانت له طلاقة فكرية وانطلاق ذهنى، وامتاز بالقُدرة التعبيرية العالية، والفصاحة والإبانة، واستحضار الكلمات، واستخدامها استخداماً مؤثرا.

وتتمثل **القُدرة اللفظية** عند الخيام فى الرباعيات، وهى أكثر تمثلاً وحضوراً فى شعره العربى. والخيام فيه يملك ناصية البيان العربى، والمعانى ترد إليه متدفقة، وترابطاته اللغوية والفكرية تأتيه بسهولة.

وتثبت رسائله الفلسفية التى نشرناها أن **قُدرته على التفكير والاستنتاج والتعميم** من الأمور المسلم بها.

ولعل اختياره للشعر كمجال فنى للتعبير عن فلسفته إنما هو نتيجة لتمتعه **بقدرات فنية** تُكامِل قدراته الفكرية. واختياره لشكل الرباعية يدل على نضوج فى **القدرة على الحكْم وتقدير** الجمال، لأن الرباعية كشكل فنى بسيطة فى البناء، وبهدف الذى يختار هذا الشكل البسيط أن يحظىَ بالقبول من السامع، ويطلب بها أن يطرق فكرة واحدة، ويستخدم فيها الموسيقى اللفظية سريعة التأثير. ومن شأن الرباعية أن تحتوى الفكرة بأوجز عبارة بغرض تيسير الفهم والتخيّل.

والرباعية كشكل فنى لا يتقنها إلا صاحب الذوق الجمالى العالى القادر على تشطير البناء الفكرى إلى وحدات، وتقدير التآلف الموسيقى بين الأشطر الأربعة التى تتكون منها الرباعية. وللحالة المزاجية دورهاالبارز فى اختيار الشكل الفنى والمضمون الوجدانى، واختياره المعادلة كشكل فنى يصوغ فيه أفكاره منطقيا على هيئة مقدمات ونتائج. ولعل هذا المزاج الفنى فيه كما سبق أن نوّهنا هو الذى جعله يفضل فى مجال الفلسفة «الرسالة» على «الكتاب» كشكل يقدم فيه أفكاره، وفى مجال الشعر جعله يفضل «الرباعية» على «القصيدة». واختياره لشكل

الرباعية أتاح له أن يصوغ الخاطرة الشعرية كأنها قانون رياضى أو مسألة منطقية. وانظر إليه يقول:

مقدمة

كل شئ فينا ومنا
نقطةٌ فى وجودنا المسكون
أثرٌ من دموعنا جيحون
وشرار من الكبود الجحيم
وثوانٍ من السرور النعيم

نتيجة

فلتكن مثلما نكون ونرضى السـ
ـره حالاً أو التنعم حالاً

*****

والخيام مزاجياً منطوٍ ظاهرياً، ومنبسط باطنياً. وانطواؤه جعله يعتزل أصحاب السوء والجُهّال والمشتغلين بالسياسة، ولا يطلب من نظام المُلك سوى أن يكفيه من الرزق أن لا يحتاج إلى الناس، وأن يُقصر نفسه على الاشتغال بالتفكير والتصنيف والتدريس، على عكس زميله حسن بن الصباح الذى ناشد نظام الملك أن يُشركه فى الحُكم، وتمرّد عليه من بعد، وانفصل بحكُم قلعةً وكر النسر أو «آلموت» كما كانوا يسمونها، بل وأوعز باغتياله برغم زمالتهما القديمة فى الدراسة.

والانبساط الباطن فى الخيام هو الذى دفعه أن يقصر كتابته للرباعيات على نفسه وعلى جلسائه، وأن تكون كتابته للشعر فى السرّ، وأن يختلى بنفسه وأوراقه ليطرح فيها أشواقه، ويحبّر مباهجه ومسرّاته، أو يعزفها على العود: يقول:

حلّ عيد النيروز والأنس حلاّ
والنسيم الشافى العليل أبلاّ
وثغور الأزهار ترشف طلاّ
صاحِ لاحت فى دَوْحنا يد موسى
صاح مرت بالروْض أنفاسُ عيسى
عاد فصل الربيع والنَفْس طابت

وكان يبدن بكلماتها فتساعده أوزان الشعر التى يختارها على إنشادها:

ولـيـــالـى داود لـيـست تعـــود
والمغنـى رهـــن الفـنـــا والخُـود
فقـم انظـر فـالـيوم أزهـر عُود
فوقـــه بـلـبـــل يغنـــى لـــورد
شفّـه السُّقـم مـن غـــرام وهجـــرِ

والانطواء الظاهر هو الذى كان يشعره الخجل، ويطبعه بالحساسية، ويدفعه إلى التأمل والحذر، والاستغراق فى التفكير.

وهذا الانطواء نفسه هو الذى جعله لا يطلب الزواج، لأنه كان يأنف من مسئولياته الدنيوية، ولا يرى نفسه أهلاً لمترتباته. والانبساط الباطن أعطاه الانفعال الحنو على الأطفال، فلما رأى الصبى من أولاد الأمراء يخدم السلطان بهمة وإخلاص أظهر الحدب عليه، وأثنى على سلوكه، فقال السلطان لا تتعجب من حُسن خدمته على صغر سنه، فإن فرخ الدجاجة إذا تفقّأت بيضته، التقط الحَبّ بلا تعلُّم، وفرخ الحمامة لا يلتقط الحبّ إلا بتعلم الزَقّ، لكنه إذا كَبُر وصار حماماً، طار وحده هادياً من مكة إلى بغداد!!... وعندئذ اطمأن الخيام وتلاشت حسرته على الصبى.

وأيضا فقد حكى الإمام البيهقى أنه – أى البيهقى – كان صغيراً، ودخل على والده فى حضور الخيام، فأحسن ضيفهما إليه وسأله عن بيت فى الحماسة، وأبدى له غاية السرور منه وشجّعه.. ونخلص من ذلك إلى أن الخيام كان محباً للأولاد، حانياً عليهم، شفوقاً بهم، وكان هذا دأبه مع كل الناس. وتلك كانت أخلاقه المفطورة فيه والتى أملاها عليه عِلمه الواسع وثقافته الموسوعية.

والانفعالية العامة التى طبعت الخيام هى التى صنعت منه شاعراً متمرداً وإن كان تمرده من النمط الفلسفى. ويبدو الخيام فى شعره كأنما هو مشحون بالغضب الشديد على مسائل وجودية كالقضاء والقدر والموت، ويظهر فى رباعياته انفعال الخوف من الموت والمصير انفعالاً سلبياً ورغبة فى تحطيم الكون، يترجمهما الخيام إيجابياً إلى نزعة جدلية ورغبة فى تشكيل الكون من جديد، ليخلو من الشر والجهل والمرض والنقص والعوز والفقر، ويجعله دنيا أفضل أو يوتوبيا وجنة أرضية متخيلة جديرة بالإنسان.

ولعل التمرد عند الخيام من أهم عناصر شخصيته، ويستحق منا أن نخصصّ له فصلاً وحده، وسيكون بإذن الله هو فصلنا القادم.

*****